

نفحات القرآن

[276] المعرفة، وقد اعتبرت الآية الثامنة الطبع سبباً لعدم السمع (فَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ)، واعتبرت الآية التاسعة الطبع سبباً لعدم الفقه والفهم (فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)، والمراد في الموردين واحد، فكما قلنا: إن المراد من عدم السمع هو عدم الإدراك والوعي والفهم. وهذه المرحلة أشد من المراحل السابقة، فالمرحلة الأولى هي جعل الاكنة على القلوب، ثم الغلاف عليها، وفي النهاية يطبع عليها للحيلولة دون نفوذ أي شيء فيها، كما ذكرنا ذلك في بحث شرح المفردات، طبعاً: إن ابتلائهم بهذا المصير ليس اعتباطياً، بل لأسباب أشارت إليها الآية السابقة حيث قالت: (إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِآيَاتِهَا وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنُوا لَكُمْ أَطُوعًا أَوْ إكْرَاهًا وَذَرُوا ذُرًّا وَقَلِيلًا لِيُظَاهَرَهُمْ نَبَأُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) إِنْ عَرَضْتُمْ إِلَيْكُمْ جُنُودُ اللَّهِ فَاتْلُوا فِيهَا خُفُوفًا (الأنفال: 13). إذن إعراضهم عن الجهاد وتخلفهم عنه هو السبب في الطبع على القلوب. وآية أخرى أشارت إلى سبب آخر من أسباب الطبع، حيث قالت: (أُولَئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لِمَا هُمْ يَعْمَلُونَ) (الأنفال: 13). ولَوْ نَشَاءُ لَمَكُنَّا مُلْكًا وَنُفِثَ بِهِمْ فِي مَا هُمْ يَفْعَلُونَ (الأنفال: 13). أي أنهم يذنبون رغم رؤيتهم وعملهم بأحوال السابقين وابتلائهم بالعذاب الإلهي من جراء ذنبهم، فطبع على قلوبهم. ومما يذكر هنا أن الطبع جاء في الآية الثامنة بصيغة المضارع "نطبع" وفي التاسعة بصيغة الماضي "طبع" وهذا تلميح إلى أن الطبع نتيجة سوء أعمالهم وتصرفاتهم. يقول بعض المفسرين: إن المراد من "الطبع" في مثل هذه الآيات هو نفس السبك والنقش الذي يستخدم للدراهم والمسكوكات، وهو نقش ثابت